# أقوى من الشرف

بقلم: جاي راتان

اقترب المساء، وزحفت ظلمات الليل في أعقاب النهار، ووجدت «شيفالي» نفسها مرة أخرى منطرحة عند عتبة المطعم متعبة موجعة القدمين من طول السير في الطرقات على غير هدى!.. كان «مطعم جاناتا» هذا يقوم عند طرف أحد الأزقة المجاورة لمجلة «سيلدا» التابعة لمدينة كلكتا.. وكان أشبه بمقهى شعبي في بناء صغير متداع.

وكانت حركة المرور في الخارج على أشدها.. الشاة يتقاطرون على المحطة أو يغادرونها في أفواج متلاحقة.. ولكن «شفالي» ما كانت لتستطيع أن تلقي بالاً إلى ما كان يجري حولها.. كان جسمها متهالكاً كالخرقة المبللة، وفكرها مشتتاً بالخواطر الكئيبة كالدوامة الثائرة..

«شيفالي».. يا بؤسها.. لقد كانت بين الحين والحين ترفع رأسها، وترنو بناظرها إلى ما يدور بالمطعم، فتلتمع عيناها عندما تبصر صبياً وسيماً في نحو العاشرة من عمره يتنقل في خفة من مائدة إلى أخرى ملبياً طلبات الزبائن.. إنه.. «بادال» ابنها.. الذي قست عليه الأيام، ودفعته إلى مثل هذا العمل، وهو لم يزل في فجر حياته..

لقد جاء زوجها منذ يومين مهاجراً من شرقي باكستان إلى كلكتا.. وما كاد يضع قدميه خارج المحطة حتى صدمته سيارة قضت عليه.. ووجد الصبي هذا العمل في المطعم بينما راحت أمه تواصل بحثها عن عمل.. بلا أمل..

وكان «كاناي بابو» – صاحب المطعم – يجلس إلى مائدة صغيرة عند باب الدخول وعيناه إلى الجالسين على الموائد ليطمئن إلى تحقيق طلباتهم.. وكاناي رجل في منتصف العمر، ممتليء الجسم قليلاً، ذو شعر ناعم ممشط معطر.

وعندما اقتربت شيفالي من المكان، لمحها كاناي، ولكنه لم يتحدث إليها إلا بعد فترة من الوقت..

– شفالي... ها أنت قد عدت..

وأدارت شيفالي نفسها ونظرت إليه.. وبدا وجهها في الضوء الخافت مربداً مكدوداً، وعيناها متعبتين حزينتين..

وأجابت في صوت خافت:

– لم يكن لدي مكان آخر أقصد إليه!.

– لقد ظللت متغيبة منذ الصباح، حتى لقد ظننت أنك لست عائدة.. ظننت أنك ضللت الطريق أو .. أو أصبت في حادث سيارة كما حدث لزوجك..

وشعرت شيفالي عندئذ بما يشبه الطعنة النجلاء في صدرها إذ ذكرها الرجل الخبيث بفجيعتها في زوجها.

وتحاملت على نفسها وهي تقول له:

– ألا فاعلم يا كاماي بابو، أنه لولا طفلي لقتلت نفسي منذ اللحظة الأولى التي فقدت فيها عائلي.

ولكن كاناي عاد فانصرف عنها، إذ شغل بتسوية الحساب مع أحد الزبائن، وبعد أن مضى التفت إليها وقال:

– هل حالفك الحظ يا شيفالي اليوم؟.

وهزت شيفالي رأسها قائلة:

– كلا، إنها نفس القصة التي تحدث معي كل يوم!.

وقال لها في شماتة:

– ألم أقل لك؟!.. لا فائدة من تسكعك في الطرقات باحثة عن عمل، فلن تظفري به!.

– ربما كنت على حق يا كاناي.. يبدو أني لن أجد أحداً على استعداد لأن يقبل لاجئة لتعمل خادمة!.. كل واحد ينظر إليَّ من الزاوية السهلة.. لقد وجدت شخصين في فندق للنوم أبديا رغبتهما في قبولي للعمل عندهما، ولكني لم أسترح إلى نظراتهما..

وضحك «كاناي» وهو يقول في سخرية:

– ولماذا؟ أتراهما لو يوافقا مزاجك؟!.

وفي هذه اللحظة رأت ابنها الصبي «بادال» يهرول إليها ويبتسم لها في براءة..

وصاح بهكاناي:

– ماذا تفعل هنا؟ ألم تر السيد الجالس إلى المنضدة رقم ٣ وهو يصيح طالباً جرعة ماء؟!

وعندئذ عاد الصبي أدراجه مضطرباً.

وصمتت شيفالي برهة، ثم التفتت إلى «كاتاي» وقالت:

– لقد سمعت أنه يوجد هنا في المدينة معهد يعين النساء الفقيرات على إيجاد عمل مناسب لهن.. هل تعرف مكانه؟.

ونظر إليها الرجل نظرة حادة.. وقال لها:

– إذن أنت تريدين العون من المعهد؟! لا بأس، اذهبي واصنعي ما بدا لك، ولكن إذا سارت الأمور على غير ما كنت تنتظرين فلا تلومي إلا نفسك.. لا تقولي فيما بعد أني لم أحذرك.. يا شيفالي، إذا شئت الحقيقة المجردة فاعلمي أن مثل هذه الأماكن لا تخدم الناس لوجه الله.. إنها ليست خيراً من بيوت الرذيلة.. إن أولئك الأفراد المتخفين وراء أسماء الجمعيات الخيرية يركزون كل همهم في استدارج الساذجات البريئات إلى الفخ الذي ينصبونه لهن، وبعد أن يوقعوا بهن ويعتدوا عليهن، يلقون بهن إلى غيرهم، ويبيعونهن بيع السوائم!.. وإذا انزلقت

إلى تلك الحماة فلن تقوى على حماية نفسك بعد ذلك.. وسترين الآمال الزائفة البراقة تلمع قليلاً أمام عينيك وأنت تستنزفين شبابك شيئاً فشيئاً، ولن يتبقى لك بعد ذلك أي شيء.. حتى ولدك هذا لن تجديه فيما بعد!.

ونظرت إليه شيفالي في دهشة وقالت:

– أنت متأكد مما تقول؟!.

– متأكد؟ إذا كنت لا تصدقينني فجربي أنت بنفسك.. إنك مازلت ساذجة لا تدركين ما يرتكب في مدينة كبيرة مثل كلكتا... ولكني أعرفها جيداً.. إنني لست غريباً عنها.

وفكرت شيفالي قليلاً، ثم عادت تقول:

– عندكم في هذه المدينة مائة مصنع للجوت، وقد سمعت أن هذه المصانع تستخدم النساء أيضاً؟.

وضحك كاناي، ثم قال:

– نعم عندنا مصانع حول كلكتا تستخدم النسوة.. ولكن هل تقوين على العمل هناك؟ إن عنقط سيدق في يوم، وسيذهب جمالك وشبابك في اليوم الآخر، تحت وطأة هذا النوع من العمل الذي لم يخلق للنساء الرقيقات.. ومع ذلك فاذهبي إذا شئت إلى أحد هذه المصانع، وسترين ما يحدث إذا ما قابلت رئيس العمال وصادفت هوى في نفسه!.

واحتدم رأسها عضباً من كلامه، ولكن قبل أن تتمكن من الرد عليه، سمع صوت أوان تسقط على الأرض وتتحطم. ودنا منه فتى جلف وهو يجر الصبي «بادال» من أذنه قائلاً:

– لقد فعلها ثانية.. هذا الولد.. فنجانان آخران قد تحطما!.

وظهر الغضب الشديد على وجه الرجل وهو يقول للصغير:

– لقد كسرت فنجاناً صباح اليوم. هل تذكر هذا... إذا وقع الخراب العاجل على يديك بهذا المعدل، فسأفلس حتماً في أقل من يوم!.

والتفت إلى الفتى وقال:

– إصفع هذا الأرعن على قفاه.. اصفعه بكل قوتك!.

وهرولت شيفالي نحو الصبي.

ولكن كاناي مد يده وصاح بها قائلاً:

– مكانك يا امرأة.. حذا أن تتدخلي في أعمالي.

وقبل أن تتمكن من أن تصنع شيئاً، كان الفتى الفظ قد صفع المسكين صفعة قوية، ظافراً متشفياً!..

وصاح الصبي متألمًا، وبكى في حرقة، بينما أخذ زميله يدفعه أمامه...

وتهاوت شيفالي فوق الأرض، إلى جوار المنضدة التي يجلس إليها الرجل والدموع تنساب من عينيها.

ومسحت المرأة دمعتين ترقرقتا في ناظريها، ورفعت رأسها نحوه وقالت:

– أتدري لماذا تراني مهتمة بالبحث عن عمل لي؟ ذلك لأجل ولدي!.. إنه صغير لا يحتمل العمل الشاق.. ففي مثل هذه السن كان يجب أن يذهب إلى المدرسة!.

– مدرسة؟ وماذا تجديه هذ المدرسة؟.. أتظنين أنه بعد بضع سنوات في الدراسة سيعد له العرش ليجلس عليه كما يجلس باشوات المغول؟ أتركيه لي أيتها الجاهلة. دعيه يتعلم عملاً نافعاً عن هذا الطريق الخشن.. وفوق ذلك أنا أكافئه مكافأة سخية... إن عشر روبيات ليست شيئاً هيناً..!.

– ولكن شخصاً بغير علم ليس من شخص بغير عينين.

وقاطعها «كاناي» قائلاً:

– ليس لدى أي وقت أضيعه في الاستماع إلى سخافاتك.. إذاكنت تريدين أن تريحي جنبك فاصعدي إلى الغرفة التي تأوين إليها، وإلا فاذهبي إلى حيث تريدي،.

وكان الرجل يعرف سلفاً أن ليس لها أن تختار!.

***

كانت تلك الغرفة فوق سقف المطعم، صغيرة قذرة، تعيش فيها الحشرات والهوام، وكان طلاؤها متآكلاً في مواضعكثيرة، وكل أثاثها لا يزيد على منضدة خشبية صغيرة، ومرآة صدئة ومقعد أعرج، وسرير قديم ذي فراش حقير.

وأمضت المرأة في هذا السجن المنعزل ثلاثة أيام لا تخرج ولا ترى أحداً، وكان ابنها يأتيها ببعض الطعام مرة في الصباح وأخرى في المساء، ويجلس الطفل في حجرها لبعض الوقت يتحدث قليلاً ويشكو همه كثيراً.. وتنفجر المرأة محتجة تحدث نفسها: إلى متى سيقدر لها ولابنها أن يظلا في ضيافة هذا الرجل!.

وعندما حل مساء اليوم الثالث، صعد «كاناي بابو» إلى الغرفة، ومن نظرة واحدة أدرك لتوه أن روحها المعنوية قد تحطمت تماماً!.

– أنت تشعرين بوحشة!... ينبغي ألا نتركك وحيدة من غير أنيس ولا جليس..

ونظر إلى داخل الغرفة واستأنف قائلاً:

– هذا المكان يحتاج إلى بعض الطلاء.. وبعض الرواء!.. إن المرأة التي أقامت هنا قبل مجيئك كانت مهملة لا تحرص على النظافة... لقد كلفتني أكثر مما كسبته منها... ومع ذلك فقد تركتنا وذهبت!.. ولا أخال إلا أنها تتخبط هنا وهناك بين جوانب السوق!... إني أؤمل ألا يكون حظي منك مثل حظي من تلك المرأة الناكرة للجميل!.

وأدار عينيه ثانية في جوانب الغرفة وعاد يقول:

– ولعلك تدركين كيف تسلكين فيما أذا أرسلت أحداً ليؤنسك..

وأمنت «شيفالي» على كلامه بغير وعي، لمجرد مجاراته في هذيانه!.

ولكن الرجل سر لهذا الجواب، وقال وهو ينظر في وجهها:

– لتتبارك روحك أيتها المرأة المطواعة الرقيقة!.

وما كاد الرجل ينصرف، حتى تنبهت المرأة البائسة إلى ما يراد بها، واستغرقت في التفكير.... لقد بدأت الشكوك تساورها!.

وانقلبت الظنون إلى يقين، عندما عاد «كاناي» في ساعة متأخرة من الليلة التالية ومعه شاب نهم في النظرات.

وقال «كاناي» وهو يقدمه:

– هذا السيد قد جاء لرؤيتك!.

ونظر إليها نظرة حادة، ثم عاد يقول لها متلطفاً:

– إني أرجو أن تحسني وفادته، وتتلطفي معه!.

ودفع بالرجل خطوة أخرى، ومضى لسبيله.

ووقف الزائر ينظر إليها، ثم قال مفتتحاً الحديث:

– اختيار موفق ولاشك!

وأخرج علبة سجائره وقدمها قائلاً:

– هل تدخنين؟

ونظرت إليه المرأة بازدراء وقالت:

– ماذا تريد؟

فضحك الرجل بغير اكتراث وقال في توقح:

– أريد؟ يا الله.. ألا تعرفين ماذا أريد؟!

وكانت اللطمة التي أهوت بها المرأة الغاضبة لكرامتها على خده قاسية مدوية، فانفلت هارباً وهو يسب، ويسخط ويلعن... وجاءكاناي

مسرعاً على صوت الرجل الغاضب وتحقق عندئذ أنه قد أخطأ التقدير، وتسرع في الحكم..

وصاحت به اللباة الجرحة:

– ماذا تظنني أيها الرجل؟.. هل حسبتني مومساً؟! إن هذا المكان لم يعد يصلح لي، ولن أمكث فيه منذ الآن دقيقة واحدة!.

ووقف كاناي بابو مبهوتاً متحيراً، لا يدري ماذا يصنع.. لقد خشى أن يحدث أمر لا تحمد عقباه، فحاول أن يلطف من حدة التوتر.. ولكن «شيفالي» لم تعره أدنى التفات.

وبعد أن أوغلت في الطريق خارج المكان، والطفل «بادال» إلى جوارها، عدا «كاناي» خلفها في الزقاق المظلم، محاولاً من جديد أن يسترضيها:

– شيفالي.. ماذا دهاك حتى تعني بهذه الأمور التافهة لتثير غضبك؟! علىكل حال إذا عدت إلى صوابك وغيرت من رأيك، فإن بيتي مفتوح لك والغرفة ترحب بك.

***

وسارت شيفالي بلا وعي،كزورق بغير دفة تتقاذفه الأمواج في مهب الريح، تنتقل من شارع إلى شارع، وليس لها هدف تفكر فيه، أو مكان تقصد إليه!... وثقل النوم على الطفل فكان يتداعى بين يدي أمه في

الطريق، وكانت هي تجر نفسها جرًا، وتجره معها!.. وفي أثناء سيرها خرج إليها من أحد الأزقة رجل البوليس، وإذ رآها بمفردها في الطريق الساكن المهجور سألها ما خطبها؟ فأجابت من غير أن يختلج لها جفن بأنها عائدة من وليمة تعبدية، وحينئذ أخلى الرجل سبيلها من غير أن يستجوبها بأكثر من ذلك.. وشعرت المرأة بأنها لم تعد تقوى على السير، فتوقفت في الميدان، وجلست عند قاعدة التمثال القائم في وسطه، وراح «بادال» في سبات عميق.

وعندما شقشق الفجر. نصبت المرأة .... وساندت جسدها وهي توحي إلى نفسها بأنها ربما استردت طاقة حيوية تعينها على السير من جديد.. فلم يعد أمامها سواه يتربص بهاكالقدر المحتوم.. وجرتها قدماها في هذه المرة إلى منطقة السوق.. «سوق جرياهات».. وظهرت في الطريق مركبات الترام والأتوبيسات، وتناثر الناس هنا وهناك حول الحوانيت ولمحت من بينهم رجلاً يهرول ما إن رأته حتى لاحت لها بارقة أمل:

– جوبال دادل؟!..

واندفع الرجل نحوها بدوره..

كان «جوبال دادا» قد نزح منذ صغره من بلدة شيفالي، وقد اعتاد أن يزور مسقط رأسه مرارًا، ولكنه وغد بلغ سن الخمسين وتوفيت زوجته من زمن، لم يعد يذهب إلى بلدته.

واستمع جوبال من شيفالي إلى قصتها المؤلمة، ثم قال لها إنه يعمل طاهيًا في منزل وجيه ثري، وإنه كان يبحث عن خادمة، وأبدى استعداده لاصطحابها معه وتزكيتها عنده.

وهكذا وجدت شيفالي لنفسها عملاً في منزل السيد روي، رجل الأعمال الكبير في مدينةكلكتا...كان منزله فخمًا مبنيًا على الطراز الحديث يطل على بحيرة يهب منها نسيم لطيف يداعب أزهار الحديقة الجميلة المحيطة بالمنزل.. لم تكن شيفالي تتخيل حتى في أحلامها أن تعيش في مثل هذا المكان الساحر.

وجاء المساء وبدا أصدقاء «روي» يتوافدون على البيت مدعوين إلى وليمة أعدها لهم، وخرجت «شيفالي» إلى الشرفة تستريح من عناء العمل، ولكنها ماكادت تسلم نفسها للراحة حتى فاجأها «جوبال» وهو يتطوح من السكر، واقترب منها ودعاها إلى مشاركته في الشراب، ولما عابت عليه صنيعه قائلة له في مثل هذه السن تسكر وتستهتر، وقال لها: «وماذا في ذلك، مثل رب البيت يكون الخدم..» ثم ألتفت إليها وسألها على غير انتظار:

– هل تتزوجينني يا شيفالي؟.. إني أتحرق شوقاً إليك منذ أن رأيتك..

وأنكرت المرأة منه هذا القول، فنهرته قائلة:

– تأدب يا شيخ.. إنني في سن ابنتك!..

فضحك في بلاهة وقال:

– ابنتي؟.. وهل نحن نتحدث عن البنات؟ إنما أنا أتحدث عن زوجة.. أريد أن أتزوجك، إن طوعاً وإن كرهاً..

ورأت المرأة الشر في عينيه، وقد أفقدته الخمر صوابه، فحاولت أن تصده ودفعته عنها بكلتا يديها وجرت هاربة إلى الممر الداخلي..

كان المكان مظلماً، إلا من غرفة واحدة كان يدور فيها القصف وتختلط فيها أصوات المدعوين وضحكاتهم المعربدة!.

وانطرحت المرأة على الأرض يغالبها النوم.

وعندما انفض السامر وذهبت الأصوات واطفئت الأنوار، خرج السيد روى إلى الممر واتجه إلى غرفته، وتوقف أمام بابها قليلاً ثم خطا خطوات أخرى حتى وجه نفسه أمام شيفالي.

وانحنى فوقها وقال:

– شيفالي؟!..

وارتعدت شيفالي في كنها عندما لفحتها أنفاسه وقد فاحت من فمه رائحة الخمر..

وعاد الرجل يهرف:

– تعالي معي إلى حجرتي.. لئلا يصيبك البرد في هذا المكان..

وأمسك يدها. ولكنه لم يقو على جذبها، فقد كان يقف ثم يسقط ولا يكاد يقوى على حمل نفسه.

– تعالي معي.. ألا تسمعين؟.

وتملكها من تهديده ووعيده خوف شديد، فتراجعت مضطربة واجفة القلب وقد أدركت فجأة أن أحلامها قد تبددت في طرفة عين، وأنها قد سقطت من المقلاة إلى النار.. فجعلت تدفع الشر عن نفسها قائلة في ضراعة:

– يا سيدي وولي نعمتي، دعني بحق السماء.. لقد تعذبت في حياتي بما فيه الكفاية، إتركني بمفردي، أشفق علي وارحمني.. إنني مخلوقة بائسة لا سند لي ولا عون!.

ولكن «روي» أمسك بها من جديد، وصرخت شيفالي.. وجاءت ربة البيت مسرعة وأضاءت النور.. فما كاد الرجل يراها حتى تسلل على الفور نحو حجرته ودخل ثم أغلق الباب دونه بالمزلاج!.

ووقفت مسز روي برهة تنظر إلى شيفالي في غيظ، ثم صاحت قائلة:

– ماذا كنت تصنعين هنا؟ إني أعرف أمثالك من نساء الطريق.. لقد جئت إلى هنا لغرض دنيء... جئتكي توقعي بزوجي في حبائلك!.

وحاولت شيفالي أن توضح الأمر، ولكن المرأة ازدادت غضباً وصرخت فيها ويدها تمتد نحوها:

– اذهبي عن وجهي في الحال.. وقسماً لئن رأيت وجهك اللعين مرة أخرى لأنزعن جلدك عن بدنك.. اذهبي.

***

ومنذ تلك اللحظة الرهيبة بدأ التحول في حياة شيفالي، وراحت تواجه مرحلة جديدة قاسية.

ربما كان الأخيار في هذا العالم أكثر عدداً من الأشرار، ولكن عندما كان يعرض لها في كل لفتة وفي كل خطوة رجل شرير، يحاول أن يستدرجها إلى حمأة الرذيلة، لم يسرع إلى نجدتها رجل فاضل واحد ليقول لها: «يا امرأة لماذا أنت مكتئبة محزونة.. ما خطب طفلك يتعلق بطرف ثوبك صائحاً باكياً؟ دعيني أمسح دموعك، دعيني أطعم ابنك الجائع..» لم تسمع من أحد كلمات العطف ولا التشجيع، ولم تجد من أحد بعض العون أو النجدة.. أين ذهب المتشدقون بألفاظ البر والإحسان، المتمسحون بأثواب التقوى والتدين، المتعلقون بألفاظ الفضيلة والخير؟!.. إنهم هناك، يقفون على مبعدة كالقطط التي تسبح ليل نهار.. تتفرج على كل شيء ولا تصنع شيئاً، وتلوك ألسنتها بالألفاظ الجوفاء ولا تقدم على عمل ما، فلا أفادوا واحداً بتقواهم ولا أعطوا الله مما أعطاهم!.

أين الشهامة والمروءة والنجدة وسائر ما في القائمة من معان اصطنعوها للتمويه والإيهام، وامتلأت بها أفواههم جعجعة من غير طحن، وإيثاراً للعافية من غير بذل؟.

كفى خطباً ومظاهر أيها الناس!.. وتعالوا تحدوني أيكم لم يطع هواه ولم يصغ لنزواته ولم يفكر في نفسه.. فإذا تواريتم خجلاً وقصوراً فلا ترفعوا رءوسكم بعد الآن لتتباكوا على الفضيلة وترموا الأبرياء بكل نقيصة وخطيئة وكل ذنب عظيم!..

***

وهكذا وجدت شيفالي جميع الأبواب مغلقة دونها، لم يكن مستغرباً منها إذن أن تعود أدراجها في ذلة وانكسار.. إلى هناك.. إلى مطعم جاناتا، المكان الوحيد الذي تعرفه!

وعندما رأى الطفل «بادال» ذلك الزقاق المظلم الذي يؤدي إلى المطعم، نظر إلى أمه في خوف وقال:«أين أنت ذاهبة يا أماه؟.. لنذهب إلى مكان آخر، أنا لا أحب أن أرى هذا المكان، لنعد ثانية.. لنعد!».

وربتت الأم على كتفه وهدأت من روعة قائلة:

– لاتخف يا ولدي، لن أدعك تشتغل هذه المرة، سأرسلك إلى المدرسة حتى لو اقتضاني الأمر.. أن أضحي بنفسي!.

كان الفجر الجديد يطل قليلاً على العالم.. على الأشرار والأخيار، ثم يتوارى خجلاً مما يقترف باسم الفضيلة واسم المروءة والنجدة.. وعلى ضوئه الخافت الحزين أخذ «كاناي بابو» يضيء المصباح ويمهد لنفسه مجلساً فوق مقعده العتيق، وعندما حانت منه التفاتة إلى الخارج ووقع نظره على المرأة التي عرفها من قبل، وعرف مدى إبائها وكبريائها، عقدت المفاجأة لسانه!.

سترى الآن – مما أقصه عليك – كم يكلف الإنسان وقوعه في غلطة واحدة.. وسترى كيف ينجلي الليل – مهما طال – عن صبح باسم بهيج..

كان الوقت مساء، وكان المقهى مزدحماً برواده.. والبهو الكبير ممتليء بالمناضد الصغيرة التي صفت بعناية ومهارة بحيث تسمح بالكاد بمرور الجرسونات المهرة من غير أن يمسوها.. أخذت مقعدي بجانب إحدى النوافذ، وأشعلت – بحكم العادة – سيجارتي. ورحت أنتظر مجيء صديقي «جوبال».. وكنت أرى أكثر الرواد تبدو على وجوههم آثار التعب.. فإن أغلبهم من الموظفين الذين يعملون في مكاتب قريبة أو مجاورة للمقهى.. جاءوا ليصيبوا بعض الراحة وهم يتناولون شاي المساء.. وكان هناك جماعة من الشبان تبدو عليهم الأناقة محسن الهندام.. ثم بعض الأسر.. أتوا غالباً لمجرد «تغيير المناظر» وكانت هناك مائدة منعزلة عند مدخل المقهى، جلست إليها سيدة تبدو في سن الثلاثين، على وجهها مسحة من الكآبة.. كانت تنظر في فنجان الشاي

وترتشف منه بغير مبالاة رشفة بعد أخرى، وكلما فتح الباب الخارجي رفعت رأسها عنه، ونظرت نحو الباب ترقب الداخل، وقد لمعت عيناها.. ثم يخبو هذا اللمعان، وتعود إلى الفنجان،كالطالب الذي ينظر فيكشف نتيجة الامتحان ثم يصاب بخيبة أمل.

لم تكن هذه السيدة تعبأ بمن حولها من الناس أو بما يحيط بها من النظرات.. وكانت فقط تتحدث قليلاً إلى النادل كلما اقترب منها وانحنى أمامها ليسألها عما إذا كانت تريد شيئاً، وفيما عدا ذلك كان كل انتباهها يتركز في الفنجان.. وفي باب الدخول!

وجعلت أنا أرقب حركاتها بفضول.. ترى من تنتظره هذه السيدة أي قدر عجيب سيشق طريقه من خلال هذا الباب؟!.

ولم ألبث أن رأيتها تهب فجأة زائغة العينين.. فقد فتح الباب، ولمحت خلف زجاجه شاباً جذاب الملامح، له نظرات كنظرات النسر، وابتسامة كابتسامة الصبح المشرق، وكان رافع الرأس في اعتداد كأنما هو أحد الغزاة الفاتحين!..

لن أنسى الصرخة التي انطلقت من فم المرأة عندما رأت الشاب وهو يدخل:

– ساتيانات.

نادته بهذا الاسم في صوت ضارع مبحوح يكاد يحز في نياط القلب..

والتفت إليها الغريب متعجباً، وهز كتفيه في سخرية ثم اتجه نحوها.. وأخذ ينظر إليها كالقصاب الذي يتفحم اللحم الذي يريد أن يشتريه، ثم أومأ برأسه في برود وهو يقول:

– أخشى أن تكوني قد أخطأت يا سيدتي.. لست أدعى بهذا الاسم، ثم إني لا أعرفك...

وفغرت فاها، واتجهت إليه تمسك بذراعه، وتنظر في إمعان إلى وجهه.. ثم إذا بها تتهالك على مقعدها شبه ميتة!.

وعرت الحاضرين موجة من التساؤل والعجب، وأخذ الشبان يضحكون، بينما أظهر الكتبة المجهدون أشفاقهم وأسفهم.

وجلست ساكناً أرقب المرأة المسكينة.. وجاء صاحب المقهى بعد قليل لنجدتها.. وهمس في أذنها ببضع كلمات فوقفت السيدة تتحامل على نفسها، وجمعت حوائجها، وغادرت المكان..

واستغرقتني هذه المأساة حتى إنني لم أشعر بصديقي وهو يدخل ويأخذ مكانه إلى جانبي..

وقلت له:

– جوبال؟ إنني لم أراك وأنت تدخل؟!.

فقال:

– طبعًا.. لقد كنت مستغرقًا في النظر إلى «مدام باجلي».

– أوتعرفها؟.. من تكون هذه السيدة؟.. هل هي مجنونة؟.

وأشعل جوبال سيجاراً، وطلب الشاي، ثم قال:

– نعم.. هي مجنونة في بعض الحالات، أما الآن...

– ألا يستطيع الأطباء أن يمدوا لها يد العون؟ ألا توجد معاهد أو مستشفيات تلائم حالتها؟

– إنها لا تطيق أن تحبس في مستشفيات للمجانين، مع أن أهلها قد حاولوا فعلاً أن يتخلصوا منها عن هذا الطريق.. لابد أن تأتي عملاً شاذاً قبل أن تنتبه إليها السلطات!.

وشعرت لأجلها بالحزن، وأخذت أتمتم:

– أمر مؤلم!.. ضحية رجل لا قلب له.. لاشك في هذا!.

– لا، لا.. بل العكس هو الصحيح.. لقد قذفت بعيداً برجلها، وهي الآن تعض بنان الندم.. إنها تعود إلى عقلها أو يعود إليها عقلها.. هذا كل ما في الأمر.

واستبد بي حب الاستطلاع، فطلبت إلى جوبال أن يقص علي قصتها..

***

قال:

– إنني لا أعرفها شخصياً.. ولكن أحد الأصدقاء روى لي القصة، إنها تدعي «آشا» وهي وحيدة أحد التجار الموسرين، ربيت والمال عندها لا حساب له، فنشأت حريصة على أن تستمتع بأوقات طيبة بغير اكتراثللثمن الذي تبذله.. وتصرف والدها الرجل الأرعن حين رآها تضيق ذرعاً بالتعليم وتغادر الكلية وهي في منتصف الطريق.. لقدكان يريد لها أن تتعلم وتأخذ مكانتها اللائقة بفتاة في مثل مركزها.. ولكنها عارضت وسخفت فكرة مواصلة التعليم.. ثم مات والدها فجأة، وانصرفت هي إلى العبث مع الشبان، وإلى المغامرة والمقامرة، إلى أن وقعت في حب أحد الشبان الفارغين العابثين.. وعندما استطاعت أن تنقذ نفسها لم يعد معها غير القليل من المال، وعادت إلى عقلها فعدلت عن خطتها الرعناء.. خطة قذف المال من النافذة!.

«وفي إحدى المآدب التي أقامها بعض الأصدقاء، تعرفت إلى أحد الشبان، وكانت في ذلك الوقت جميلة جذابة، وكانت صغيرة وذكية فأغرم بها غراماً شديداً.. وكان هو حسن المظهر، متوقد النشاط، فجرفها

معه، ثم كان ما يصنعه – عادة – كل شخص وجد ضالته المنشودة، فتزوجا..

«واستأنفا الحياة معاًفي منزل كبير ذي حديقة واسعة مؤسس أفخم أثاث.. ولاحت سعادتهما في البداية على أتمها.. كانت هي مثال الزوجة الفاضلة، وربة البيت الصالحة، وكان زوجها سعيداً هانئاً.. كان كلاهما يحب الآخر ويخلص له، وقد ظن أن كل شيء قد رتب لحياة زوجية طويلة.. ولكن جنتهما – جنة عدن – لم تكن خلوا من الحية التي تسعى بالوقيعة بينهما.. لقد بدأ الشيطان يرفع رأسه، ويطل من سور الجنة!.

«كانت الحياة الرتيبة المألوفة أكثر من أن تألفها طبيعة «آشا» وقتاً طويلاً.. لقد بدأت تتململ.. بدأت تضيق بهذا النوع من الحياة وتتشوق إلى تغيير الصور، وتغيير الألوان، وراحت تقول لإحدى صديقاتها أن زوجها يحسب لغفلته أن هذه الطريقة يمكن أن تظل قائمة إلى الأبد.. وقالت إنها قد ضاقت بتلك الحياة حتى كادت تصرخ.. أو تنفجر!.

«أما زوجها، فقد ظل رزيناً عاقلاً، هادئاً لا يعرف التقلب، ولا يجعل للغضب أو الغيرة مكاناً في قلبه.. أحب زوجته بقوة حباً حقيقياً، وكانت سعادتهما هي بغيته وغايته في حياتهما الزوجية، برغم كل شيء!.

«وأخذت تناكفه، وتتهمه بأنه بارد بليد الحس... وعادت تحن إلى الماضي وإلى حياة أولئك الأفاقين الأغرار.. ناسية الدرس القاسي الذي تلقته من قبل!.

«وذات يوم، دعت أحد هؤلاء الشبان الفارغين إلى منزلها لتناول الغداء، وهناك – في حضور زوجها – اقترحت عليه أن تصحبه إلى جولة رياضية فوق الجليد في جبال الهملايا، ولم تنتظر رأي زوجها أو موافقته، بل اندفعت إلى الخارج، وتركها زوجها في غير ما ضجة.. ثم عادت بعد أن قامت بنزهتها، وهي تحسب أن زوجها في انتظارها على شوق، يفتح ذراعيه لاستقبالها!.

«ولكن أحلامها الوردية ما لبثت أن تبخرت، عندما اكتشفت أن زوجها الهاديء الصامت الرزين قد التحق بخدمة الجيش،كمتطوع، ومع أنها بذلت ما في وسعها من جهد بحثاً عنه، فإنها لم تقف له حتى على أثر!.

«كيف هو؟ أين هو؟ كانت تصرخ بمرارة إنسان فقد أملاً عزيزاً عليه، ولم تستطع أن تدرك أن حبها الصادق الوحيد وأخلاصها العظيم لم يقوي على الصمود حبال الحمل الثقيل الذي وضعته عليه.. تحقق من أنه لا يستطيع أن يوفر لها السعادة التي تنشدها، وبدلاً من أن يظل على هذه الحال من الضيق والعذاب، فضل أن ينفصل عنها، على الرغم من نداء فؤاده المعذ.

«ولم تستطع إدارة الجيش أن تدلها على مكانه، ولم تستطع «آشا» أن تعرف أهو حي أم في عداد الأموات.. ولو أنها تحققت من موته، فلربما كانت تنقطع لتبكيه وتلبس السواد حزناً عليه، وتستأنف من

جديد حياة أخرى غير هذه الحياة.. أما وهي لا تعلم حقيقة أمره، فقد غرقت في بحر من الشك القاتل، والحسرة المرة!.

«حدث هذا كله منذ عشر سنوات، وهي الآن تزوركل مقهى، وكل مكان يزدحم بالناس عليها تلمحه بينهم، ولكن للأسف قد سبقتها الأحداث، ونالت ما تستحقه».

***

وعند هذا الحد أنهى «جوبال» حديثه، ولكني لم أتفق مع «جوبال» في رأيه.. كنت أشعر بالرثاء لهذه المرأة المسكينة، ولذلك قلت له:

«لا يا جوبال، إن هذه المسكينة هي الآن في عذاب كعذاب الجحيم، والرحمة تقضي بشيء من الراحة لنفسها المحطمة!

– أتقول هذا حتى بعد أن سمعت قصتها على حقيقتها؟

– أجل،إنني أرى أنها تستحق أن تتهيأ لها بعض الهناءة.. إنها ليست من نوع يستعصي على الإصلاح، لقد تركت لتنشأ في صغرها بغير توجيه، ولم يرشدها أحد أو يعاونها بالرأي وهي تتخذ قراراتها!..

فقاطعني قائلاً:

– ولكني أقول لك يا صديقي، إنها حتى لو وجدت زوجها، وأظهرت له حبها وعاطفتها، فإنها لن تلبث أن تعود إلى طبيعتها القلقة، وإلى أسلوبها الذي درجت عليه، فتفجع الرجل المسكين مرة أخرى.. وإني إشفاقاً على الرجل، أراني مرتاحاً لأنها لم تجده.

– ولكنك قلت لي إن زوجها قد أحبها حباً شديداً، ومن أوصافك له، نستنتج أنه من النوع الذي يحب مرة واحدة، ولكن بعمق وإخلاص وتفان في الحب.. وهذه السنوات العشر التي مرت بهما.. سنوات البعاد والعذاب، ستكون هادياً لهما كليهما.. سيكون حبه من القوة والمنعة بحيث يمسك عليه زوجته.. إن لي شعوراً قوياً بأن «آشا» قد وعت الأن درسها جيداً..

– ربما، ولكن ماذا يجدي هذا النقاش الأجوف وأنت ترى أنه قد فات الأوان الآن؟!.

***

كنت أرى «آشا» بعد ذلك في مقاهي مختلفة، وكان من السهل أن أستدرجها إلى الحديث معي، وكانت تبدو عاقلة في كلامها وتصرفاتها، ولكني كنت ألمح شبح الجنون وهو يتربص بها في انتظار انهيار أعصابها المنهكة، وكنت أحرص على أن أبعدها عن مرضها..

وما لبثنا أن تصادقنا، ورحت أحملها على أن تتحدث عن رجلها.. وكانت تتحدث كثيراً، وتصفه لي وصفاً دقيقاً حتى كنت أتمثله أمامي

وكأنني أراه. وكان لديها شعور قوي بأن زوجها الحبيب لا يزال حياً، وأنها قد تعثر عليه يوماً ما لو أنها اجتهدت في ذلك.. ومن أجل هذا كانت لا تكف عن زيارة الأماكن التي يكثر فيها الناس باحثة عنه.

ولكني لم أكن مقتنعاً بهذه الوسيلة للبحث عن «ساتيانات».. وكثيراً ما كنت أفكر في خلوتي في هذا الأمر، فلا أهتدي إلى حل.. ولكن حدث ذات يوم، قبيل أحد الأعياد القومية بأيام، أن خطرت لي فكرة، وكانت فكرة باهتة في البداية، ولم أكن على يقين من جدواها، ومع ذلك لم أكف، فلا يأس في المحاولة، وعمل شيء ما خير من لا شيء على الإطلاق.

وفي صباح اليوم التالي، أمضيت نصف اليوم في كتابة رسالة، ضمنتها في بساطة تلك القصة المؤلمة، قصة «آشا» من غير أن أشير إلى أسماء بالطبع، مع حرصي على وصف «ساتيانات» في الرسالة وصفاً دقيقاً، وأخذت نسخاً من رسالتي وأرسلتها بالبريد إلى بعض رؤساء تحرير الصحف اليومية، ولم أكن على يقين من أن يلتفتوا إليها، ولكن الذي حدث هو أن بعضهم قد نشروا الرسالة، لتأثرهم بها في الغالب، وكنت قد طلبت في رسالتي إلى القراء أن يمدوني بمعلومات إذا ما كانوا يعلمون شيئاً عن الرجل الذي وصفته – أقصد ساتيانات – ولكني كنت قليل الثقة برسالة تكتب بعد عشر سنوات!.

ومع ذلك فقد تلقيت في اليوم الثالث رسالة من طبيب يعمل في مصلحة الجنود المصابين.. يقول فيها أنه يوجد شخص تحت إشرافه

يتفق مع جميع الأوصاف التي ذكرتها إلا في شيء واحد.. ولم أضيع وقتاً، فارتديت ملابسي، وقصدت إليه.

وفي بقعة هادئة منعزلة عن المدينة، غادرت العربة ومشيت بين صفين من الأسرة الموضوعة فوق المروج الخضراء والأزهار الجميلة، وحانت مني التفاتة نحو المقاعد ذات العجلات تحمل بعض مشوهي الحرب ينظرون في يأس قاتل إلى الفضاء الواسع، وأدرت وجهي للحال عن هذا المنظر، فقد خجلت من نفسي، وكادت الدموع تطفر من عيني.. هؤلاء الرجال أبطال أظهروا بسالة وإقداماً وتضحية، وعندما انحرفت عجلة المعركة، إذا هم محطمون مشوهون!.

هؤلاء الرجال الشجعان المضحون، الذين حرسوا ديارنا، وذادوا عن نسائنا وأحبائنا وأولادنا، وعن أموالنا وثمراتنا، هم الآن منعزلون عنا منسيون منا! كم شخص منا يفكر في هذه الأنفس البائسة المعذبة؟ وماذا صنعنا من أجل أن نكفل سعادتهم ونزيل وحشتهم؟!

صعدت درجات السلم ببطء ودلفت إلى غرفة ذات باب أبيض، يجلس في ركنها أمام مكتب كبير، رجل رزين في رداء أبيض، فأدركت أنه هو الطبيب الذي أقصده.. ورفع الرجل رأسه عن الورق، فحييته وقلت له:

– دكتور راجا؟

– نعم أنا هو، تفضل بالجلوس.

وأخذنا في الحديث، وعرجت على موضوعنا فقلت له:

– أرجو أن تريني الرجل الذي ذكرته في رسالتك إليَّ

فبدا عليه شيء من الضيق، ووضع أصبعه في ياقته وكأنه يحس بالاختناق. ثم قال:

– ستطلع على حالة جديدة عليك.. إن الشخص الذي ستقابله قد لا يكون هو الذي تبحث عنه.. ولكني أوليه من عنايتي الجانب الأكبر، لقد جيء به إلى هذا المصح وهو فاقد الوعي، وأوراقه أيضاً مفقودة، ولعل الصدمة بعد أن ذهبت ببصره وتركت له العمى والظلام هي التي أفقدته الذاكرة أيضاً، فلم يستطع أن يدلي باسمه أو بمعلومات عن نفسه، أو لعله لم يرد أن يذكر لنا شيئاً من ذلك، فأعطيناه اسماً حرص عليه وعرف به.. إن لدينا كثيرين مثله لا يبصرون ولكن ليسوا مثله في عزلته وانطوائه على نفسه.. وكثيراً ما دلني تفكيري على أن شيئاً خطيراً في حياته قد أثر فيه إلى هذا الحد، وجعله على هذه الصورة التي ستراها.. وربما كان ههذا هو سبب كتابتي إليك.

وجالت بذهني فكرة، فقلت للطبيب:

– هل هناك مانع يا دكتور من أن أقابله على حدة؟

– لا، لا مانع.. إنه الآن في المكتبة، هيا لأريك الطريق إليها.

وكانت الغرفة خالية، إلا من رجل وخط الشيب شعره، كان يجلس ساكناً وفي يده كتاب، بينما تمر أصابعه على صفحاته تقرأ له.. اقتربت منه وناديته في لطف قائلاً:

– ساتيانات...

وفوجىء الرجل، وقفز من مقعده، وصاح:

– من هناك؟.. من يناديني؟.

ورحت أهدىء من روعه، إلى أن استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً، وبدأنا الحديث:

– إنها «آشا» يا ساتيانات.

فقال بصوت مضطرب:

– ماذا؟!.. هل هي في ضيق؟

– نعم ولا، يا «ساتيا».. إنها تبحث عنك طيلة السنوات العشر الأخيرة وأخشى أن يصيبها سوء إذا لم تهتد إليك سريعاً..

وصمت برهة، ثم قال:

– من أنت يا سيدي؟

– أنت لا تعرفني يا «ساتيانات» أنا صديق لآشا، وآمل أن أصبح صديقاً لك أيضاً.

– إذا كنت صديقاً لـ «آشا» فها أنت ترى أن عثورها علي لن يشبع رغبتها، إن آشا تحب المرح واللهو.. ولم أكن قادراً على أن أوفر لها هذه الأشياء قبل عشر سنوات، عندما كنت صغيرًا وفي أوج شبابي، فكيف أقوى الآن، وأنا ضرير، وكئيب، وطاعن في السن.. كيف أقوى على شيء من هذا؟.

وفجأة تغير وجهه وقال مستدركاً:

– أو لعلها ترغب في الطلاق؟.

فقلت على الفور:

– لا، لا. وأؤكد لك.. إنها تريدك أنت.. وتريد عونك لها.

– ولكن، لعلك مخطيء.. كيف أنا الرجل الضرير، أن أساعد فتاة متوثبة متفتحة للحياة كـ «آشا»؟ لن أستطيع.. لن أستطيع.

– ولكنك لا تزال حياً يا «ساتيا» وحبك قوي إلى درجة تستطيع معها أن تكون نعم العون لها، على الرغم من عاهتك.

– ولكن أخفقت منذ عشر سنوات.

– ولن تخفق مرة أخرى.. لقد أخفقت لأنك كنت ضعيفاً على الرغم من أن حبك كان قوياً.. وقد تغيرت آشا الآن، إنها في حاجة إلى حبك الهاديء الثابت.

وفي إيجاز شرحت له اندفاع آشا في كل مكان بحثاً عنه، وكيف كانت بتصرفاتها تستدر الشفقة، أو الضحك والسخرية، أو الاحتقار والشتائم من رواد المطاعم والمقاهي، حتى وقفت عند القمة الخطيرة توشك أن تنحدر منها إلى الجنون.

وظل ساتيانات يستمع إلى الرواية وهو يفتح يده ويقبضها في عصبية.. وفي النهاية قال في استسلام:

– لا بأس.. سأفعل أي شيء يكفل لها السعادة.

وفابلت آشا في الليلة عينها.

وقلت لها في هدوء:

– آشا، لدي بعض الأخبار لك.. ولا أعرف ما إذا كانتتسوءك أم تسرك.. إن ذلك يرجع إلى طريقة تقبلك لها.

وعند ذلك عاودها البريق القديم.. عاد يتضوأ في عينيها، وقالت:

– هل وجدته إذن؟ هل هو بخير؟ وهل يريدني؟..

وقلت لها:

– نعم وجدته.. إن «ساتيانات» قد أصبح ذا عاهة.. إنه ضرير.. ومسن..

وتراجعت آشا إلى الخلف جزعة تصيح:

– ضرير؟!.

– هل يغير ذلك من الأمر شيئاً بالنسبة لك؟.

وعادت تقول وهي في شبه ذهول:

– أتقول ضرير.. أعمى؟ أين هو؟.. أين حبيبي؟.. خذني إليه.. أرجوك، خذني إليه..

– إذن هيا استعدي للذهاب.

***

كانت تلك الأمسية هي إحدى أمسيات الاحتفال بأحد الأعياد وكان الجو قاتماً كلون المداد.. والمصابيح الصغيرة ترسل أضواءها من نوافذ المنازل، وضحكات الصبية تختلط في الفضاء مع أصوات العجلات وأغاني المارة.

وكانت «آشا» تجلس في العربة إلى جانبي في سكون، تغلفها أفكارها وخواطرها، بينما تعدو العربة في الشوارع وهي تنهب الأرض

نهباً.. حتى إذا وصلنا إلى الملجأ، فوجيء الدكتور «راجا» بمقدمنا بهذه السرعة..

ورويت له الموقف، موقف آشا، عندما سمعت بالنبأ.. ورتب لنا الطبيب كل شيء. وكان علينا أن نقابل «ساتيانات» في قاعة الاستقبال، وأخذت «آشا» من يدها وقدتها إلى حيث ينتظر حبيبها.

وعندما دخلنا، وقف «ساتيا» على قدميه، وقف منتصباً ويداه إلى جانبيه، وقد لاح شعره الأبيض تحت الضوء الخافت كطبق من الفضة سلط عليه الشعاع.. وترددت «آشا» قليلاً، ثم اندفعت نحوه واسمه في شفتيها، وذراعاها تطوقان عنقه.. أما هو فقد لفها بذراعيه، وضمها إليه..

وأغلقت الباب دونهما الباب في هدوء وأنا آخذ طريقي إلى الخارج، وحمدت اللهعلى أن أعاد النور والسعادة إلى الزوجين اللذين لقيا ما لقياه من المتاعب والمشاق، وسألته تعالى أن يحمي حبهما الذي احتملا في سبيله هذا العذاب.. ومن المحقق أنه لم يكن هناك في ليلة العيد المنير ضوء أقوى من ذلك الضوء الوهاج الذي أغلقت دونه الباب، منذ لحظات!

«عن مجلة كارافان».

لماذا يرخصون بقيام الحانات، التي يفقد فيها الناس عقولهم؟!.